التدوين الأول: أو كيف نكتب التاريخ بالممحاة

17 أغسطس 2025

سياسة وتاريخ

8 دقيقة قراءة

www.saudieinstein.com

التدوين الأول: أو كيف نكتب التاريخ بالممحاة

من احتكار العباسيين للذاكرة إلى احتكار إيران للدموع .. رحلة في تزوير ألف عام

يلوح أنّ في تاريخنا جريمة قتل مثالية؛ الضحية موجودة، الجثة محفوظة، لكنّ القاتل كتب محضر التحقيق. والحال أنّ العباسيين، حين أسقطوا بني أمية سنة 132 للهجرة، لم يكتفوا بقتلهم مرّة واحدة؛ قتلوهم كل يوم في كتب التاريخ، ثم ورّثونا الجثث على أنها الحقيقة.

بيد أنّ المفارقة الأعمق تكمن في الشعار الذي رفعوه: "الرضا من آل محمد". عقود من التآمر تحت راية غامضة، تُرضي الشيعة دون أن تُنفّر السُنّة، تَعِد دون أن تلتزم. تحفة في النفاق السياسي لم يتفوّق عليها إلا شعار "المقاومة والممانعة" في زماننا: وعد بتحرير القدس

ينتهي باحتلال بيروت وبغداد وصنعاء.

ذاك أنّ أبا جعفر المنصور، في رسائله المتبادلة مع محمد النفس الزكية قُبيل قتله سنة 145هـ، لم يتورّع عن الطعن في عليّ بن أبي طالب، نعم، عليّ نفسه الذي باسمه قامت الثورة العباسية! كتب المنصور أنّ علياً فشل في التحكيم، وأنّ الحسن تنازل بجُبن، وأنّ الحسين انخدع بأهل العراق. رسائل محفوظة في كتب التاريخ تكشف النفاق: يستغلّون اسم آل البيت للوصول، ثم يطعنون فيهم للبقاء. المنصور والنفس الزكية، أبناء دفتر لا أبناء مشروع، يتبادلان التُهم عبر البريد نفسه الذي أسّسه الأمويون. أليس هذا بالضبط ما يفعله ورثتهم اليوم؟ يرفعون راية المقدّس ثم يذبحونه على

مذبـح السـلطة، مـن طهـران إلـى الضاحيـة الجنوبية.

أمّا الأمويون، فقد كانوا على الأقل صادقين في دنيـويتهم. لـم يـدعوا القداسـة؛ ادعـوا الكفـاءة. معاوية أسّس البريد وجعل الرسالة تصل من دمشـق إلـى الأنـدلس فـي أسابيع بـدل شهـور، ثـورة اتصـالات فـي زمـن الجِمـال والخيـل. عبـد الملك عرّب الدولة وضرب أول دينار عربي، محرّراً الاقتصاد من هيمنة البيزنطيين. الوليد بنى من دمشق إلى قرطبة، تاركاً عمارة ما زلنا نلتقط صـور السـيلفي أمامهـا. حتـى يزيـد، نعـم، يزيـد المَلعون ألف مرة كل عاشوراء، كان في لحظاته الصافيـة بيـن كـأس وكـأس شـاعراً رقيقـاً وموسيقياً مرهفاً.

لكنّ التاريخ كتبه الموالون لا المحايدون. أبو مخنف، حفيد مقاتلي صفّين، روى كربلاء بعد وقوعها بعقود كأنه شاهدها بعينيه، حوّل ذاكرة الكوفة المجروحة إلى تاريخ رسمي. ونصر بن مزاحم، الشيعي الذي ثار حتى على العباسيين، صاغ صفين كملحمة بين الحق والباطل. وهشام الكلبي، الذي رفضه المحدّثون واعتمده المؤرّخون، حفظ ما يُريد وأهمل ما يُريد. ثلاثة رواة شكّلوا ذاكرتنا: الأول لم يشهد ما يروي، والثاني متحيّز بإقراره، والثالث مشكوك في صدقه. ومن رواياتهم المتضاربة نسجنا "حقيقة" كربلاء وصفّين حتى صارت أكبر من التاريخ نفسه.

والطريف – إن جاز أن نضحك والدم يسيل منذ

ألف وأربعمائة عام – أنّ كربلاء نفسها أكبر من حقيقتها بألف مرّة. معركة خاسرة خاضها رجل شجاع لكن سيء التقدير ضد خصم أقوى وأدهى. سبعون قتيلاً في صحراء العراق تحوّلوا إلى ملحمة كونية تُعاد كلّ عام بدموع مُصنعة في إيران وموزعة على الميليشيات. رأس مال لا ينضب من المظلومية، يستثمرونه بفائدة مركّبة من اللطم والنواح، والعائد؟ صواريخ كاتيوشا وكلاشنيكوف.

راهناً، ونحن نقرأ الطبري كأنه وحي منزل، نقرأ في الحقيقة النسخة العباسية المنتقاة منها. يريدون أن نلعن الأمويين بحماسة، وننسى أنّ من نلعنهم فتحوا الأندلس ووصلوا بواتييه، بينما من نُمجدهم قتلوا بعضهم حتى استوردوا

المماليك والأتراك ليحكموا باسمهم. مفارقة لذيذة: نفتخر بقصر الحمراء ونلعن من وضع حجر أساسه، نتغنّى بابن رشد القرطبي وننسى أنه حفيد حضارة الذين نشتمهم.

وأغلب الظن أن بيت الحكمة – معجزتنا الحضارية التي نلوّح بها في وجه الغرب – كان مصنع تزوير بامتياز. الورّاقون، أجدادنا المثقّفون العضويون، عاشوا بين خوف السلطة وطمع المال. من امتدح العباسيين وشتم الأمويين نال الذهب والحظوة، ومن تردّد أو اعترض نال السجن أو النسيان. مروان بن أبي حفصة يُنشد: "أنّى يكون وليس ذاك بكائنٍ * لبني البنات وراثة الأعمام"، يُنكر حقّ آل عليّ لصالح العباسيين ، فيُغدق عليه المال. بينما غيره ممن

تجرّأ علـى المديـح الخـاطئ أو الصـمت المُريـب، اختفى من كتب الأدب كأنّه لم يكن. القصيدة محكمة، الشاعر سجين، الدين قافية، الدم إيقاع، والحقيقة؟ ممحوة. إذن مالفرق بين ورّاق القرن الثـالث الهجـري ومذيـع "الميـادين"؟ الأول كـان يكـذب بخــط النسـخ؛ الثـاني يكـذب بالــ HD. كلاهما يعرف أنه يكذب، وجمهور المحور يعرف أنه يكذب، ويتظاهر بالتصديق.
لعلّ الأكثر كوميدية – والتراجيديا، و إذا تكررت تصير مهزلة، أنّ اللعبة ذاتها تُلعب اليوم بحماسة المبتدئين. إيران تُصدّر "ثورتها" ملفوفة بعمائم سـوداء وشعـارات عـن المسـتضعفين، وهـي إمبراطورية فارسية تحلم بكورش وتتكلّم بلسان الحسين. تركيا تبيعنا العثمانيـة الجديـدة فـي

مسلسلات مدبلجة، ننام ونصحو على "قيامة أرطغرل" ونسينا قيامتنا. مصر لا تعرف هل هي فرعونية أم عربية أم إسلامية؛ كممثّل على خشبة مظلمة: نسي النص، فقد الدور، يرتجل في العتمة والجمهور غادر منذ زمن. الأسد -لاذكره الله بالخير- ورث الجمهورية عن أبيه كما يُورث المحل التجاري. الإسلاميون يحلمون بالخلافة عبر التيك توك، يريدون عُمر بن الخطاب وهم أقرب إلى عُمر بن أبي ربيعة.

والحال أن محمد عابد الجابري، ذلك العقل المغربي الذي حاول فكّ اللغز، وضع إصبعه على الجرح حين تحدّث عن "التدوين الأول" لحظة احتكار الذاكرة وتحويلها إلى بضاعة سياسية. لكنّه، رحمه الله، كان متفائلاً أكثر من اللازم حين

دعـا إلـى "تـدوين ثـانٍ". كـأن المشكلـة فـي النسخة وليست في أصل الكتابة. نحن لا نحتاج إلى تدوين جديد؛ نحتاج إلى درجة الصفر من التدوين، إلى بياض نتركه بياضاً، إلى صمت لا نملؤه بالثرثرة المقدّسة.

والمُضحك المُبكي – وما أكثر ما يُضحك ويُبكي فـي بلادنـا – أنّنـا الأمّـة الوحيـدة التـي تهـدم حاضرهـا انتقامـاً لمـاضٍ لـم يحـدث كمـا نظـنّ. نتقاتل على من كان محقّاً في صفين، ولا نعرف من سبب نكبة غزة اليوم. المحور: يلعن يزيد كل صـباح، بينمـا يزيـدون جُـدد يحكمـون "السـنة" بالكيمـاوي والبراميـل والمسـيّرات. يبكـون الحسين منذ قرون، والحسينيّون الجُدد "السنة" يُذبحـون الآن مـن بغـداد إلـى صـنعاء، لكـن

دموعهم محجوزة حصرياً لكربلاء: ماركة مسجلة، حقوق الطبع محفوظة لطهران.

لئن كان ثمّة ما نتعلمه من هذا العبث المتواصل، فهو أننا أمة تكتب تاريخها بالممحاة ثم تُقاتل من أجل الدفاع عن البياض. نمحو الحقيقة ونكتب الوهم، ثم نمحو الوهم ونكتب وهماً آخر، ثم نمحو حقيقة أننا محونا، في دوامة من المحو والكتابة حتى لم يبقَ إلاّ ورق أبيض نتوهّم أننا نقرأ فيه تاريخاً مجيداً.

إما أن نعترف بأننا سجناء في مكتبة من الأكاذيب المتوارثة، أو نبقى نحرس الأوهام كحرّاس متاحف لآثار مزيّفة، نعرف أنّها مزيّفة، والزوار يعرفون، لكنّنا نواصل الشرح بحماسة، ونطلب ثمن التذكرة.

نحن، ببساطة قاتلة، الأمة التي تُصدّق أكاذيبها ثم تموت من أجلها. ثم تُورّث الموت والأكاذيب للأجيال القادمة، مع وصيّة بالحفاظ على التراث.

والتراث؟ صفحة سوداء كُتبت بحبر أسود؛ فإما أن نكتب تاريخنا بأيدينا من الصفر... أو نُدفن مع أكاذيبنا إلى الأبد.